

دراسة الخيبة والرّجاء في رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي على ضوء المنهج الاجتماعي

رضا ناظميان*

تاريخ الوصول: ٩٧/٨/٤

رضا جليلي گيلانده**

تاريخ القبول: ٩٧/١١/١٢

الملخص

تعتبر رواية «ذاكرة الجسد» رواية واقعية؛ تأثرت الكاتبة أحلام مستغانمي بالمجتمع الجزائري في كتابة هذه الرواية. هذا المقال محاولة لدراسة الخيبة والرّجاء في رواية «ذاكرة الجسد» على ضوء المنهج الاجتماعي في النقد، فيهدف البحث عبر المنهج الوصفي - التحليلي إلى كشف علاقة المجتمع بالأدب والأديب، وتأثير الكاتبة بمجتمعه وتأثيرها فيه. توصل البحث إلى أنّ الرواية تميل إلى اليأس والخيبة، وكثيراً ما تعرض عن الرّجاء والأمل، وتزداد خيبة وإحباطاً بحسب أحداثها وسردها، بحيث نرى أنّ هذا اليأس والخيبة يتمتّلان في ثلاثة وجوه من مضامين الرواية وهي موضوع الحبّ الفاشل، وموضوع المجتمع والسياسة، والبؤس الثقافي؛ وفي ظل هذا المنحى تنتقد الكاتبة ظروف المجتمع الثقافي والاجتماعي واللامساواة في الدّخل والثروة في المجتمع الجزائري. ومن جانب آخر يواجه الشخصية الرئيسية "خالد بن طوبال" كلّ ما رآه ويسمعه من الأخبار السيئة باللامبالاة التي لا يمكن أن يولدها سوى اليأس الأخير. تشير الرواية إلى ميل المجتمع إلى الوساطة والمحسوبية دون الكفاءة ثم أنّ هذه الظاهرة تؤثر بشكل مباشر في حياة بعض الشرائح الاجتماعية على الأخص في حياة خريجي الجامعات؛ الخيبة التي تحدّثت عنها أحلام مستغانمي خيبة يعاني منها شعبٌ بأكمله لكن لا يعرف مداها إلّا المثقفون، فالمثقفون وحدهم يعرفون الخسائر التي تحملها الشعب بعد الاستقلال.

الكلمات الدلّيلية: ذاكرة الجسد، أحلام مستغانمي، الخيبة، الرّجاء، المنهج الاجتماعي.

* أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلّامة الطّباطبائي، إيران. Reza_nazemian2003@yahoo.com

** طالب مرحلة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلّامة الطّباطبائي، إيران. reza.jalili.g@gmail.com

الكاتب المسؤول: رضا جليلي گيلانده

المقدمة

رواية «ذاكرة الجسد» رواية واقعية بمعنى أنها تعكس صورة المجتمع الذى عاشت فيه أحلام مستغانمى. لا شكّ فى أهميّة الجانب الاجتماعى من الأدب، فالأدب وجه من وجوه النشاط الاجتماعى، وعلاقة الأديب بالحياة ممّا لا يشكّ فيها أحد.

«إنّ الأدب - مهما قيل فى الكلام عن مصدره، وعن مراحل إنتاجه - هو بالدّرجة الأولى تعبير عن الحياة والمجتمع والنّاس. والأديب لسان مجتمعه، وهو المصوّر لهمومه ومشكلاته على أىّ وجه من الوجوه. وإذا كانت الصّلة بين الأدب والمجتمع صلة حتميّة قائمة بالضرورة، فإنّ الذى لا شكّ فيه كذلك أنّ العلاقة بينهما علاقة تأثّر وتأثير، إذ الأديب يؤثّر فى مجتمعه، وأدبه سلاح من أسلحة التعبير والتّطوير والصّياغة الجديدة لما حوله، ولكنّه - فى الوقت نفسه - خاضع لتأثير الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة من حوله، وهى تتحكّم - بشكل أو بآخر - فى صبغ إنتاجه الفكرى صبغة ما. ويسجل للمنهج الاجتماعى فى الأدب أنّه وقف فى وجه تيار "الفنّ للفنّ" ووجه التّيارات الشّكلانيّة التى راحت تجرّد الأدب من الوظيفة والغاية، وتنكر عليه أن يارب بتحقيق آية غاية نفعيّة، وأرادته - خلافاً للمنطق والتّصوّر الفكرى السّليم - أن يكون مقصوداً على الإمتاع والإطراب، ونشيدان الجمال، وكأنّ الأدب ما هو إلّا مجرد قالب شكليّ باهر يتمييز بالصّياغة الجذابة الآسرة، ولكنّه لا يحفل بالمضامين الاجتماعيّة، أو السّياسيّة، أو الدّينيّة، أو غيرها» (قصاب، ٢٠٠٩م: ٤٣). ومن هذا المنظار تقف "نظريّة الانعكاس" فى وجه تيار "الفنّ للفنّ" أو البرناسيّة.

أسئلة البحث

١. هل تميل الرواية إلى اليأس والخيبة أكثر من الرّجاء والأمل؟
٢. ما هى مظاهر الخيبة فى الرواية؟
٣. ما هى أسباب الخيبة فى الرواية؟

فرضيات البحث

١. رواية «ذاكرة الجسد» رواية تميل إلى اليأس والخيبة أكثر من الرّجاء والأمل.

٢. مظاهر الخيبة هي الحبّ الفاشل، والخييات الاجتماعية والسياسية، والبؤس الثقافي.
٣. الظروف الاجتماعية السيئة في المجتمع الجزائري هي السبب الرئيس في خيبة الكاتبة ويأسها.

خلفية البحث

عثر الباحثون على هذه البحوث:

١. رسالة بعنوان «شعرية النصّ الروائي في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي» للباحثة حامدي سامية (جامعة الحاج لخضر، بانتة) نُشرت سنة ٢٠٠٨م. لقد حاولت الباحثة دراسة النصوص الشعرية في هذه الرواية على ضوء الخصائص الشعرية والبلاغية.
 ٢. رسالة بعنوان «بناء الشخصية والمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي» لـ "فلة قارة" و"لينده لكحل" نُشرت بجامعة منتوري بقسنطينة سنة ٢٠١١م. يرمى البحث إلى تقسيم شخصيات الرواية إلى أنواع متعدّدة، ثمّ يعطينا معلومات عامّة عن كلّ شخصية ويتناول دراسة شخصيات الرئيسة في أنواعها المختلفة.
 ٣. مقال لأحمد رضا صاعدي وآخرين، بعنوان «موازنة بنية الاسترجاع الزمني في رواية دنيايين (دو دنيا) لكلي ترقى ورواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي»، نُشر في مجلة الدراسات القصصية للأدب الفارسي واللغات الأجنبية لجامعة بيام نور، فصلية محكمة، العدد ٢- شتاء ١٣٩٢ش.
 - ركّز هذا المقال على الاسترجاع الزمني للتقنيات الموظّفة في رواية «ذاكرة الجسد» واستنتجت أنّ وجود الجانب العاطفي والتحليلي لبطلها هو أكثر تعقيداً من رواية «دو دنيا».
 ٤. مقال بعنوان «دراسة سوسيونصية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي» نُشر في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ١٩ خريف سنة ١٣٩٣ش.
- درست الباحثة فاطمة أكبرى زاده وزملائها الرواية بناء على الرواية المونولوجية والرواية البوليفونية بحيث اعتبروها متعدد الأصوات بالتعبير عن أيديولوجيات الكاتبة وأفكارها،

وعدّوا الأساليب الكلاميّة لهذه الرواية متعدّدة فى الإدلاء بالمستويات السّياسيّة، والاجتماعيّة، والنّفسيّة، والتّاريخيّة.

٥. مقال بعنوان «وظيفة مكان القصّة بتقديم عناصر المقاومة، رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي نموذجاً» نُشر فى مجلّة الجمعيّة الإيرانيّة للغة العربيّة وآدابها، فصليّة علميّة محكمة، العدد الـ ٣٨ ربيع سنة ١٣٩٥ ش.

حاولت الباحثة صديقة زودرنج وزميلها أن يبسطا دور عنصر المكان بأنواعه وذلك بالتعبير عن مقاصد أدب المقاومة فتشتمل دلالات المقاومة على التّضحية والشّهادة والشّجاعة والتّضال فى سبيل الوطن بحيث صورتها كاتبة الرواية عبر عنصر المكان.

٦. مقال بعنوان "سيمياء أسماء الشّخصيّات فى رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي (الشخصيتين الرئيسيتين نموذجاً)" نُشر فى مجلّة الجمعيّة الإيرانيّة للغة العربيّة وآدابها، فصليّة علميّة محكمة، العدد الـ ٤٠ خريف ١٣٩٥ ش.

درست الباحثة هاله بادينده وزملاؤها سيميائية الشّخصيّتين الأصليتين على ثلاثة مستويات؛ المستوى الصوتى والمعجمى والدلالي. فاستنتج الباحثون أن اسم "خالد" يرمز إلى البقاء والاستمرار، واسم "حياة" يرمز إلى الحب والوطن. فتختلف هذا البحث عن الدراسات السّابقة اسماً ومضموناً. إذ إنّ هذا البحث ينهج على المنهج الوصفى - التحليلي على ضوء المنهج الاجتماعى فى النّقد، ويدرس عنصر الخيبة والرّجاء فى الرواية نموذجاً.

قراءة الخيبة والرّجاء فى الزّواية على ضوء المنهج الاجتماعى

يعنى المنهج الاجتماعى بارتباط الأدب والأديب فى الحياة فى وجوها كافة، كما أنّه يعنى بظروف الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وخصائص البيئة الجغرافيّة والمعيشيّة، وسيرة الأديب وحياته العامّة والخاصّة، وما تقلب فيه من أحداث وظروف وملابس، ونحو ذلك. «إنّ الأدب - فى المحصّلة - هو نتاج هذه الظّروف، وهو انعكاس للحياة، بأبعادها كافة، وثمرّة من ثمرات هذه العوامل المختلفة، ممّا يجعل التاريخ السّياسى والاجتماعى ضرورة حتميّة لفهم الأدب، وتفسيره، والحكم عليه» (المرجع نفسه: ٣٥). «يبدأ النّقد الاجتماعى بمبدأ يقول إنّ علائق الفنّ بالمجتمع ذات أهميّة حيويّة؛

وأنّ تقصّي هذه العلائق قد ينظم استجابة المرء الجماليّة إلى عمل من أعمال الفنّ ويعمقها. إنّ الفنّ لا يتخلّف في فراغ، وأنّه ليس من عمل شخص حقّاً، بل من عمل خالق محدّد في الزّمان والمكان، يستجيب لمجتمع هو منه في القمّة، بأنّه جزؤه النّاطق. فالنّاقِد الاجتماعي، إذن، يعنى بفهم الوسط الاجتماعي ومدى استجابة الفنّان له وطريقته» (سكوت، ١٩٨١م: ١٣٥).

«وكان لتطوّر علم الاجتماع، والاعتماد على معطيات العلوم الطّبيعيّة التي تطوّرت خلال القرن التاسع عشر، ووصلت إلى نتائج هامّة في تطبيقاتها على الأحياء النباتيّة والحيوانيّة، أثر في تعزيز هذا الاتجاه النّقدي؛ إذ حاول بعض النّقاد تطبيق هذه المعطيات على الأدب، وقالوا: إذا كانت بعض الفصائل الحيّة في الطّبيعة - كالنبات والحيوان مثلاً - تتأثّر بالمحيط والبيئة من حولها؛ فإنّ الأديب / الإنسان / متأثّر بها حتماً، ولا بدّ أن يكون لهذه العوامل الخارجيّة دور في تشكيله» (قصاب، ٢٠٠٩م: ٣٦).

الأدب واقعة اجتماعيّة تاريخيّة نسبيّة، وأنّ الكاتب يعبّر في أعماقه عن وجهة نظر الطبقة التي ينتمي إليه بوعي أو بغير وعي. فهناك علاقة بين بناء الرواية وبناء الوسط الاجتماعي الاقتصادي.

«العلاقة بين الأديب ومجتمعه علاقة جدليّة، فالأديب يتأثّر بمجتمعه ويؤثّر فيه، تصنعه ظروفه وأحواله الاقتصاديّة والفكريّة والسياسيّة. وإنّ رؤية الأديب الفكريّة، وفلسفته عن الحياة والكون، إنّما تبلوران بتأثير المجتمع والمحيط والتربية. والأديب يؤثّر في مجتمعه، فيسهم في تطويره وإصلاحه، وقد تحمل كتاباته بذور الثّورة والتّغيير، وصياغة مشاعر النّاس وأحاسيسهم على نمط معيّن» (المرجع نفسه: ٣٧).

المنهج الاجتماعي، دراسة تهتمّ بصفة أساسيّة بالأثر وعلاقته برؤية معيّنة للعالم، فالأثر وفق هذا المفهوم، يبدو كشكل بنائي يعبّر عن موقف معيّن لجماعة معيّنة إزاء حركة التّاريخ، وهذا يعنى أنّ بناء الأثر يتضمّن عناصر ديناميّة ترتبط بسلوك هذه الجماعة وفكرها.

الأدب جزء من النّظام الاجتماعي، وهو -كسائر الفنون- ظاهرة اجتماعيّة، ووظيفته اجتماعيّة وبناء على ما تقدّم «يبدو الأدب ضرورة لا غنى عنها، وهو نشاط اجتماعي متميّز، فهو ليس ترفاً ولا زخرفة، بل هو حاجة ماسّة، والإنسان لا يستطيع أن يقيم

حضارة من دونه، إذ لا بدّ للحضارة من تكامل بين الحاجات المادّية والروحية، والأدب وجه من وجوه هذه الحاجات الروحية، بل إنّ إنسانية الحضارة لا تتحقّق إلّا بالأداب والفنون وما شاكلهما...» (المرجع نفسه: ٣٧).

إذا كان الأديب نتاج العوامل الثلاثة التي تحدّث عنها تين، وهى العصر، والجنس، والبيئة، فإنّ الماركسيّة التي هي من أشهر متبني هذا المنهج النقدي قد قدّمت - على أيدي ماركس وأنجلز - عاملاً اجتماعياً آخر من العوامل المؤثرة في تشكيل الأدب، وهو وسائل الإنتاج (حمادة، لا تا: ٦١) أو العامل الاقتصادي بشكل عام، ومن المسلمات به عند الماركسيين «أنّ الأساس الاقتصادي للمجتمع هو الذي يحدّد طبيعة الإيديولوجيا والمؤسّسات والممارسات كالأدب، التي تشكّل جميعها البنية الفوقيّة لذلك المجتمع.. بحيث إنّ النصوص الأدبيّة تُرى بوصفها محدّدة مسبباً بفعل الأساس الاقتصادي...» (نيوتن، ١٩٩٦م: ٨٨).

وإذا كان الأدب يعكس المجتمع فإنّ ذلك لا يعنى أنّه ينقله حرفياً، أو يصوّره فوتوغرافياً، بل ينقله من خلال فهم الأدب له أو موقفه منه. كان جورج لوكاتش مثلاً «يرى أنّ الأدب يعكس الواقع الاجتماعي والاقتصادي، لكنّه رفض فكرة أنّ ثمة حتميّة واضحة بين الاثنين، وهو يحاول أن يبرهن على أنّ أعظم الآثار الأدبيّة لا تعيد فحسب إنتاج الإيديولوجيات السائدة في عصرها، بل تجسد في شكلها نقداً لهذه الإيديولوجيات» (قصاب، ٢٠٠٥م: ٥٧). أى إنّ الأديب - وهو يعكس الوضع الاجتماعي القائم - يقدّم لنا موقفه الفكرى والفلسفى من هذا الوضع، فهو ناقل وناقد، وليس ناقلاً حرفياً فحسب، وليس كما تعكس المرأة الأشياء.

يربط المنهج الاجتماعي النقدي الأدب بالجماهير، فيجعلها هدف خطابه، وبذلك أعلى من شأن الجماعة، وبحث عن تأثير الأدب فيها، حتّى ذهب إلى أنّ قيمة الأدب الجماليّة تنبع من قدرته على التعبير عن الجمهور (أندرسون، ١٩٩١م: ١١٩).

بناء الأثر الأدبي، لا يعكس البناء الاجتماعي أو يعبر عن شخصيّة الكاتب فحسب، بل يبدو كواقعة لها دلالة موضوعيّة تتمثّل في وجود وحدة بين الفرد والمجتمع تتمّ بطريقة ديالكتيكيّة في التاريخ. النّقد الاجتماعي هو نقد مضمونى بل إنّ بعض النّقاد يسمّيه "النّقد المضمونى" إذ هو يعنى بمضمون العمل الأدبي، ويتوقّف عنده بالدراسة والتّحليل،

ويرى في الأدب رسالة اجتماعية هادفة، أو حدثاً ذا طبيعة اجتماعية (المرجع نفسه: ١١٨).
الأدب في هذا النقد الاجتماعي (المضموني) ناقل للأفكار السياسية والفلسفية والجمالية
وغيرها، لأفراد المجتمع، أو لطبقة منه، وهو يوجهها وفق عقيدة أو "إيديولوجيا" معينة
يتبنّاها الكاتب، ويروج لها في كتاباته، ولذلك صنّف هذا النوع من النقد فيما أطلق عليه
اسم "النقد الإيديولوجي" أي نقد المواقف والأفكار.

النقد الاجتماعي هو "نقد تفسيري" وهو يتّجه إلى مضمون العمل الأدبي؛ لأنه أهمّ
عناصره، ويحاول الناقد من خلاله إبراز الدلالات الاجتماعية أو التاريخية أو النفسانية أو
غيرها الكامنة في هذا العمل، من منطلق ما عرفنا من أنّ الأدب يعكس المجتمع. التفسير
الاجتماعي بالنسبة للكاتب يعنى التشخيص، والتحليل لأثر البيئة على الفكر بوجه عام.
النقد الاجتماعي كذلك "نقد حكمي" تقويمي، وهو يعلى من شأن الكاتب الملتزم
قضايا مجتمعه، المعبر عنها، والذي يشفّ عمله عن عروق المجتمع (المرجع نفسه: ١١٩).
يهتمّ الاتجاه الاجتماعي في النقد الأدبي بشكل خاصّ بالأعمال الأدبية الواقعية،
ويهمل - في أغلب الأحيان - تلك الأعمال التي تخرج إلى أدب الرّمز، أو العبث، أو
السريالية، ولعلّه لا يجد فيها - بشكل واضح - تلك المضامين الاجتماعية التي يبحث عنها،
ويعنى - في العادة - بدراستها والتّركيز عليها، أو كأنّ هذه الآثار الأدبية - غير الواقعية -
«تبدو للقارئ وكأنّها لغز يبحث عن حل... وهذا النوع من الأدب يبدو وكأنّ الهدف منه
الهروب من الدلالة» (عياد، ١٩٧١م: ٤٨).

فعرفنا أنّ هذه الدّراسات كما هو واضح لنا، تهتمّ بمحتوى الأثر الأدبي، ومحتوى الواقع
الاجتماعي، والتاريخي. وهي بذلك تدفع الأدب نحو مفهوم الوثيقة، أكثر من دفعه نحو
مفهوم الأدب ذاته (حجازي، ٢٠٠٤م: ٩١).

ترى الماركسيّة - وهي من أكثر المذاهب الفكرية اهتماماً بالنقد الاجتماعي وتأثيراً فيه
في الوقت نفسه - أنّ الشّكل الفنّي تابع للمضمون الفكري. كان ماركس يقول في الكلام
على العلاقة بين الشّكل والمضمون في العمل الأدبي: «لا قيمة للشّكل إذا لم يكن شكلاً
للمضمون كذلك». فنواصل البحث في ثلاثة أقسام وهي الخيبة لأجل الحبّ الفاشل،
والخيبة في الحياة الاجتماعية والسياسية، والخيبة في مجال الثقافة؛ ونشرح علاقة الأديب
بمجتمعه في كلّ قسم.

الخبيبة لأجل الحبّ الفاشل

إنّ الشّخصيّة الرّئيسيّة في هذه الرواية هي "خالد بن طوبال". وهو من المجاهدين الذين شاركوا في حرب التحرير الجزائري زمن الثّورة الجزائريّة؛ تمّ انتقال خالد إلى مستشفى في تونس بعد إصابة شظايا بيده اليسرى، فتمّ عمليّة بتر ذراعه بعد أن الطّبيب المعالج يثق بأنّه لا جدوى من الوصفات الأخرى ولا بدّ من بتر ذراعه. فبعد أن أصبح خالد المقاتل معاقاً لم يكن بإمكانه المشاركة في الحرب. وإنّه يلتقى بعد ٢٥ سنة بابنة قائده في الحرب "سى الطّاهر" التي سمّيت بـ "أحلام"، ويصيب بحبّها بعد أنّهما التقيا عدّة مرّات. القسم الأوّل من الخيبات حول هذا الحبّ المأساوي وفيما يلي مقتطفات من الرواية التي تشير إلى الخبيبة واليأس:

(١) يخاطب خالد حبيبته قائلاً: «نحن لا نشفى من ذاكرتنا، ولهذا نحن نكتب، ولهذا نحن نرسم، ولهذا يموت بعضنا أيضاً» (مستغانمي، ٢٠٠٠م: ٧)؛ «أجمع الأوراق المبعثرة أمامي، لأترك مكاناً لفنجان القهوة وكأنّني أفصح مكاناً لك» (المصدر السّابق: ٨)؛ «تساءلت كثيراً بعدها، وأنا أعود بين الحين والآخر لتلك الصّورة، كيف عدتني هكذا لتتربّص بي، أنا الذي تحاشيت كلّ الطّرق المؤدّية إليك؟ كيف عدت بعدما كاد الجرح أن يلتئم. وكاد القلب المؤثّث بذكراك أن يفرغ منك شيئاً فشيئاً وأنت تجمعين حقائب الحبّ وتمضين فجأة لتسكني قلباً آخر. غادرت قلبي إذن...» (المرجع نفسه: ١٦)؛ «يستيقظ الماضي اللية داخلي.. مربكاً. يستدرجني إلى دهاليز الذاكرة. فأحاول أن أقاومه لكن، هل يمكن أن أقاوم ذاكرتي هذا المساء؟» (المرجع نفسه: ٢٤ و ٢٥).

يتحدّث خالد في مخيلته مع حبيبته ويقول رغم أنّه هرب من ذاكرته لكي ينساها لكنّ الذاكرة ما تخلّت عنه؛ وفي الواقع واجه خالد نوعاً من اليأس وهي يأسه في عدم مقدرته من نسيان الماضي.

(٢) بعد أن التقى خالد بابنة سى الطّاهر في معرض للرّسم في باريس، تعدّه أحلام لكي يزوره يوم الاثنين ويتمسّك خالد بوعدها فراح يعدّ الأيام المتبقّية حتى الاثنين: «ما الذي أعرفه عنك؟ شيئان أو ثلاثة... أعدتهما على نفسي بعد ذلك عدّة مرّات، لأقنع نفسي أنّك لم تكوني "نجماً مذنباً" عابراً كذاك الذي يضيء في الأمسيات الصّيفيّة، ويختفي قبل أن يتمكّن الفلكيّون من مطاردته بمنظارهم، والذي يسمّونه في قواميس

الفلك... "التّجم الهارب"! لا.. لن تهربي منّي، وتختفي في شوارع باريس وأزقتها المتشعبة بهذه السّهولة. أعرف على الأقلّ أنّك تعدّين شهادة ما في المدرسة العليا للدراسات، وأنك في السنّة الأخيرة للدراسة، وأنك في باريس منذ أربع سنوات، وتقييمين عند عمّك منذ عتين في باريس أي منذ سنتين. معلومات قد تكون هزيلة، ولكنّها تكفي للعثور عليك بأيّة طريقة.

كانت الأيّام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين تبدو طويلة وكأنّها لا تنتهي. وكنت بدأت في العدّ العكسيّ منذ تلك اللحظة التي غادرت فيها القاعة، رحت أعدّ الأيّام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين. تارة أعدّها فتبدو لي أربعة أيام، ثم أعود وأختصر الجمعة الذي كان على وشك أن ينتهي، والاثنين الذي سأراك فيه، فتبدو لي المسافة أقصر وأبدو أقدر على التّحمّل، إنّها يومان فقط هما السّبب والأحد.

ثم أعود فأعدّ الليالي... فتبدو لي ثلاث ليالٍ كاملة، هي الجمعة والسّبب والأحد، أنساءل وأنا أتوقّع مسبقاً طولها، كيف سأقضيها؟ ويحضرني ذلك البيت الشعريّ القديم الذي لم أصدّقه من قبل:

أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة
وقد عشت دهرأ لا أعدّ الليالي»
(المرجع نفسه: ٧٠)

وبعد كلّ هذا الانتظار يُخيّب آماله لأنّ أحلام لا تزوره يوم الاثنين على موعدهم. (٣) رغم أنّ خالد لا يلتقي بأحلام، لكن عمّها (سى الشّريف) يلتقي بطاهر في معرض الرّسم وحينما يريد أن يودّع خالد يسلم بطاقته لخالد وهذه البطاقة يشعل ضوء الأمل في قلب طاهر:

«كيف يمكن لي وقتها أن أطارد نجمك المذنب الهارب؟

وحدها تلك البطاقة التي أعطاني إياها سى الشّريف وهو يودّعني كانت تبعث شيئاً من الأمل في نفسي. فقد كنت أعرف أخيراً الأرقام السّريّة التي توصلني إليك، فنمت وأنا أخطّط لمبرّر هاتفيّ قد يجمعني بك» (المرجع نفسه: ٨٤).

(٤) بعد عدّة مواعد تأتي أحلام إلى بيت خالد لتزوره في بيته، فيمتلئ وجود خالد في تلك اللحظات بالحبّ والرّجاء:

«كلّ الذى كنت أدريه، أنّك كنت لى، وأننى كنت أريد أن أصرخ لحظتها كما فى إحدى صرخات غوته على لسان فاوست «قف أيها الزّمن ما أجملك!»» (المرجع نفسه: ١٧٣).

٥) بعد عدّة أشهر تضطرّ أحلام بالرحلة إلى الجزائر للعطلة الصّيفيّة وتترك خالد فى باريس وحيداً، فيصاب خالد بالخيبة واليأس ويتخيّل أن طيفها لم ينفصل عنه بعد فى محاولة للهروب من هذا اليأس:

«أنت لى الليلة ككلّ ليلة. فمن سيأخذ طيفك منى؟ من سيصادر جسدك من سريرى؟ من سيسرق عطرک من حواسى؟ ومن سيمنعنى من استعادتك بيدى الثّانية؟ أنت لذتى السّريّة، وجنونى السّرى، ومحاولتى السّريّة للانقلاب على المنطق. كلّ ليلة تسقط قلاعك فى يدي، ويستسلم حرّاسك لى، وتأتين فى ثياب نومك لتتمدّدى إلى جوارى، فأمرّر يدي على شعرك الأسود الطّويل المبعثر على وسادتى، فترتشين كطائر بلّله القطر. ثمّ يستجيب جسدك النائم لى» (المرجع نفسه: ١٨٤).

٦) وفى الإطار نفسه يلجأ خالد إلى الرّسم إذ إنّه لا يستطيع الصّبر على فراق حبيبته، يقول خالد:

«لقد أنقذنى تلك اللوحات من الانهيار. كان لا بدّ أن أرسّمها لأخرج من تلك المطبّات الجنونيّة التى وضعت عليها قدمى معك» (المرجع نفسه: ١٩٢).

٧) كلّما يقرب الخريف يتّسع باب الأمل والرّجاء أمام خالد لأنّه يعرف أن أحلام ستعود قريباً إلى باريس لمواصلة دراستها الجامعيّة:

«كنّا على أبواب أيلول. وكنت سعيداً أو ربّما فى حالة ترقّب للسّعادة. ستعودين أخيراً... كنت أنتظر الخريف كما لم أنتظره من قبل. ستعودين لى... يا معطفى الشّتوى... يا طمأنينة العمر المتعب... يا أحطاب الليالى الثلجيّة» (المرجع نفسه: ١٩٣).

٨) حينما تعود أحلام إلى باريس لا تهتمّ لخالد ويمضى شهور دون أن التقياً أو تطلبه هاتفياً، فيصاب خالد باليأس والخيبة:

«كنت أحاول بكلّ الأشكال (والألوان...) أن أنتهى منك. ولكنى كنت فى الحقيقة أزداد تورّطاً فى حبّك.

اعترفت لك مرّة على الهاتف... في لحظة يأس:
أتدريين .. حبّك صحراء من الرّمال المتحرّكة، لم أعد أدري أين أقف فيها...»(المرجع نفسه: ٢٢٨).

٩) بعد عدّة أسابيع يتّصل عمّ أحلام(سى الشّريف) إلى خالد لكي يدعوه إلى العشاء في منزله الذي تسكن فيه أحلام أيضاً؛ بداية يسعد خالد لدعوته لكن يصيب بالخيبة حينما يكتشف أنّه دعا ضيوفاً آخرين إلى الحفلة ولن يكون خالد بمفرده مع عائلة أحلام. *مازلت أذكر ذلك اليوم من فبراير، عندما جاء صوت سى الشّريف علي الهاتف، ليدعوني إلى العشاء في منزله.*

«فوجئت بدعوته، ولم أسأله حتّى عن مناسبتها. فهمت منه فقط أنّه دعا آخرين للعشاء، وأننا لن نكون بمفردنا»(المرجع نفسه: ٢٢٩).

١٠) «ومازلت أحلام لا تعنى بخالد فهو يعيش في خيبته وحيداً. ذات صباح يرّنه الهاتف ويتوقّع خالد أن يكون أحلام لكن حينما يرّد على الهاتف يكشف أنّ كاترين (صديقة خالد) على الخطّ؛ اتّصلت لكي تبارك عيد(السان فالنتان) القديس الذي يبارك العشاق، فتسأل خالدًا: ماذا تريد أن أتمنّى لك في عيد الحبّ؟ يجيبه خالد بشيء من الخيبة واليأس:

أريد أن أحال إلى التقاعد العاطفي.. أيمكنك أن تبلغني قديسك طلبي هذا!»(المرجع نفسه: ٢٣٦).

١١) «بعد أسابيع يتّصل سى الشّريف إلى خالد. بداية يسعد خالد لهذه المحادثة، لأنّ صوت سى الشّريف يأتي من بيت تسكنه أحلام؛ لكنّ هذه السّعادة لا تدوم لأنّ خالد يكتشف في هذه المحادثة أنّ أحلام تزوّجت من رجل آخر، فيصيب بالخيبة. ما زلت أذكر ذلك السبت العجيب.. عندما رنّ الهاتف ذلك المساء بتوقيت نشرّة الأخبار.

كان سى الشّريف على الخطّ بحرارة وشوق أسعداني في البداية، وأخرجاني من رتابة صمتي الليليّ ووحده.

كان صوته عندي عيداً بحدّ ذاته والصّلة الوحيدة التي ظلّت تربطني بك، بعدما سدّت كلّ الطّرق الموصلة إليك»(المرجع نفسه: ٢٤٧).

«كان يكفي أن أعرف أنّ تلك المكالمة تأتي من بيت أنت فيه، لأعود عاشقاً مبتدئاً بكلّ انفعالات العشاق وحماقاتهم» (المرجع نفسه: ٢٦٨).

(١٢) «يسافر خالد إلى قسنطينة بعد أن يطلب منه سى الشريف أن يحضر عرس ابنة سى الطاهر. حينما يصل خالد إلى قسنطينة يشعر بفرح ورجاء في الليلة الأولى. وكنت سعيداً في تلك الليلة..

تلك السعادة الغامضة المرّة، لأنني كنت أدري أنّ كلّ شيء سوف يحسم في اليومين القادمين، وأنني بطريقة أو بأخرى سأنتهي منك» (المرجع نفسه: ٣٠٨).

لكنّ هذه السعادة لا تطول كثيراً، فيعود خالد اليأس والخيبة صباح تلك الليلة؛ لأنّه لا يطيق فراق حبيبته:

«في ذلك الصّباح، كانت الخمرة ملجئى الوحيد، لأنسى خيبتى معك» (المرجع نفسه: ٣٤٣).

ينتهي هذا القسم هنا، أرادت الكاتبة أحلام مستغانمي أن تصوّر لنا بلداً لا تحترم أبطاله. في هذه الرواية، خالد هو الرمز للمقاتل الحقيقي الذي لا يميل إلى استغلال البلد بصفته معاقاً وأنّه من معطوبى حرب الاستقلال. أمام خالد هناك مجموعة من المقاتلين الذين يستغلّون البلد بلحمه وشحمه. لا تتزوّج أحلام من خالد بل تتزوّج من أحد هؤلاء المستغلّين لأنّه يمتلك أموالاً لا يمتلكها خالد وأمثال خالد.

الخبيّة في الحياة الاجتماعية والسياسية

يربط المنهج الاجتماعى الأدب بالمجتمع، وينظر إليه على أنّه لسان المجتمع، والمعبّر عن الحياة. فالحياة هي مادّة الأدب، منها يستقى موضوعاته، ويغترف أفكاره وتصوّراته، وهو كذلك يتّجه بخطابه إليها، ولم تخلّد الأعمال الأدبية، وتتسم بالعظمة والديمومة إلّا لأنّها خدمت الحياة، وعبرت عنها، وصوّرت هموم الإنسان ومشكلاته فيها. فالأدب إذن يقدّم صورة للعصر والمجتمع، والأعمال الأدبية وثائق تاريخية واجتماعية.

تعيش الكاتبة أحلام مستغانمي في مجتمع بعد حرب الاستقلال، وهي ترى أنّ ما وصل المجتمع الجزائرى إلى مكانته الجديرة به رغم أنّه قدّم آلاف الشّهداء في مسيرة تحرير الوطن منهم أبوها.

في هذا القسم من البحث سنتحدث عن خيبات خالد في حياته الاجتماعية والسياسية التي ترتبط بحياة المجتمع الجزائري:

(١) كان والد خالد سكيراً وفساداً وكان هناك شجار دائم بينه وبين زوجته (أى والدة خالد). خالد يريد أن يتخلص من هذا الجوّ بأىّ ثمن كان، فهو يلتحق بالثورة ويتمّ اعتقاله بيد الفرنسيين بعد عدّة أشهر. في الحقيقة كان التحاق خالد إلى تلك المجموعة محاولة للهروب من اليأس والخيبة اللذان يسيطران عليه في حياته. وكان سي الطاهر الذي استدرجنى إلى الثورة يوماً بعد آخر، يدري أنّه مسؤول عن وجودى هناك. ربّما كان يشفق على سنواتى الستّ عشرة، على طفولتى المبتورة، وعلى (أمّا) التى كان يعرفها جيّداً، ويعرف ما يمكن أن تفعله بها تجربة اعتقالى الأوّل. ولكنّه كان يخفى عنّى كلّ شفقتة تلك، مردّداً لمن يريد سماعه: «لقد خلقت السّجون للرجال» (المرجع نفسه: ٣٠).

(٢) يتحدث خالد عن المجتمع الجزائري ويصفه مجتمعاً جائراً إلى أهله لأنّ الحكومة تجعلك صامتاً بكاتم صوت أو أىّ أسلحة آخر: «وبينما أسحب نفساً من سيجارة أخيرة، يرتفع صوت المآذن معلناً صلاة الفجر. ومن غرفة بعيدة يأتى بكاء طفل أيقظ صوته أنحاء كلّ البيت... فأحسد المآذن، وأحسد الأطفال الرّضع، لأنّهم يملكون وحدهم حقّ الصّراخ والقدرة عليه، قبل أن تروّض الحياة حبالهم الصّوتية، وتعلّمهم الصّمت. لا أذكر من قال «يقضى الإنسان سنواته الأولى فى تعلّم النّطق، وتقضى الأنظمة العربيّة بقيّة عمره فى تعليمه الصّمت!». وكان يمكن للصّمت أن يصبح نعمة فى هذه الليلة بالذّات، تماماً كالنّسيان» (المرجع نفسه: ٢٨).

(٣) انضمّ خالد بالجبهة المقاومة ضدّ القوّات الفرنسيّة، إنّه كان راضياً عن حياته تلك، لأنّه بعد موت أمّه لا يرى من مبرّر لكى يبقى فى بيته مع أبيه وعروس أبيه الجديدة الشّابة؛ فالتحق بالجبهة لكى يعيش حياة كريمة مع المقاتلين، لكنّ حياته هذه لا تدوم إذ إنّه أصيب فى الجبهة ويضطرّ للعودة إلى المستشفى:

«ها ذا القدر يطرّدني من ملجأى الوحيد، من الحياة والمعارك الليلية، ويخرجني من السرية إلى الضوء، ليضعني أمام ساحة أخرى، ليست للموت وليست للحياة. ساحة للألم فقط... وشرفة أتفرّج منها على ما يحدث في ساحة القتال. فلقد بدا واضحاً من كلام(سى الطاهر) يومها، أنني قد لا أعود إلى الجبهة مرّة ثانية»(المرجع نفسه: ٣٥).

(٤) يصف خالد انتقاله من الجبهة إلى المستشفى، فيعترف بأنّ تعليمات سى الطاهر الأخيرة أصبحت صلته الوحيدة مع العالم. في تلك الأيام صار سى الطاهر ذا ابنة لكنّه لم يتمكن من أن يسجلها في البلدية، لأنّ الظروف الصعبة في الجبهة لا تسمح له أن يزور بيته وعائلته، فيتخار اسماً لصغيرته "أحلام"، فيطلب من خالد أن يسجلها في البلدية: «كانت الأحداث تجري مسرعة أمامي، وقدري يأخذ منحىً جديداً بين ساعة وأخرى، ووحده صوت سى الطاهر وهو يعطى تعليماته الأخيرة، كان يصل إليّ حيث كان، ليصبح صلتى الوحيدة مع العالم»(المرجع نفسه: ٣٦).

وتلك الليلة التي عبرت فيها الحدود الجزائرية التونسية، بجسد محموم وذراع تنزف، وأنا أردّد لنفسى بهذيان الحمى، اسمك الذي أصبح وسط إجهادي ونزيفي، وكأنّه اسم عملية أخيرة كلّفني بها سى الطاهر، كنت أريد أن أحقق طلبه الأخير، وأطارد حلمه الهارب، فأمنحك اسماً شرعياً رسمياً.. لا علاقة له بالخرافات والأولياء..»(المرجع نفسه: ١١١).

(٥) تمّ عملية بتر ذراع خالد في مستشفى "حبيب ثامر" بتونس؛ فدخل خالد ساحة أخرى في حياته يعتبره "ليست ساحة للحياة وليست ساحة للموت ساحة للألم فقط". تتغيّر معنوياته بعد هذه العملية وتضعف كثيراً وأنه أصيب بفشل وخيبة آخر في حياته. في محاولة للهروب من هذا الوضع السيء يصف له الطبيب اليوغسلاوي أن ترسم. فيتمسك خالد بوصفة الطبيب ويتخلّص من اليأس. إنّه يقول: وحدها في قاعات الرسم والمعارض كنت أجد نفسى رجلاً بذراعين أو رجلاً فوق العادة:

«كنت الرجل الذي رفضه الموت ورفضته الحياة. كنت كرة صوف متداخلة .. فمن أين يمكن لذلك الطبيب أن يجد رأس الخيط الذي يحلّ به كلّ عقدي؟ وعندما سألني ذات مرّة، وهو يكتشف ثقافتى، هل كنت أحبّ الكتابة أو الرسم، تمسكت بسؤاله وكأنّني

أتمسك بقشة قد تنقذني من الغرق، وأدركت فوراً الوصفة الطبية التي كان يعدّها لي» (المرجع نفسه: ٤٠).

«كان داخلي شيء لا ينام، شيء يواصل الرسم دائماً وكأنه يواصل الرّكز بي ليوصلني إلى هذه القاعة، حيث سأعيش لأيام رجلاً عادياً بذراعين، أو بالأحرى رجلاً فوق العادة...» (المرجع نفسه: ٧٤).

رسمتها منذ خمس وعشرين سنة، وكان مرّ على بتر ذراعي اليسرى أقلّ من شهر. لم تكن محاولة للإبداع ولا لدخول التاريخ. كانت محاولة للحياة فقط، والخروج من اليأس. رسمتها كما يرسم تلميذ في امتحان للرّسم منظرًا ليغيب على ورقة الأستاذ: «ارسم أقرب منظر إلى نفسك» (المرجع نفسه: ٥٩).

٦) تمّ معرض خالد ولم تهتمّ به غير صحافة فرنسيّة مختصّة وبعض المجلّات العربيّة المهاجرة. ولكنّ الصحافة الجزائريّة تجاهلته عن إهمال. ولم يحضر صديق خالد الصحافي الذي وعده بالحضور في معرض الرّسم، وأخبره فيما بعد، أنّه اضطرّ للبقاء في الجزائر لتغطية مهرجان للرقص والغناء في الجزائر. وحينما يعتذر خالد بسبب عدم حضوره، يقول له خالد:

«لا يهّم.. بعد أيام لن يذكر أحد اسم ذلك المهرجان. ولكنّ التاريخ سيذكر اسمي لا محالة ولو بعد قرن».

ثمّ يقول الصحافي أنّك مغرور يا خالد ويجيبه خالد:

«أنا مغرور لكي لا أكون "محقوراً" فنحن لا نملك الخيار يا صاحبي. إنّنا ننتمي إلى أمة لا تحترم مبدعيها وإذا فقدنا غرورنا وكبرياءنا، ستدوسنا أقدام الأميين والجهلة!» (المرجع نفسه: ١٨١).

فنرى في كلام خالد اليأس والخيبة من مجتمعه الذي يتكوّن من الأميين الذين لا يهتمون بالمتقّفين ولو استطاعوا أن يدوسوا المثقّفين تحت أقدامهم لفعّلوا ذلك.

٧) يضطرّ خالد إلى ترك وطنه بسبب الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في الجزائر، لأنّه لا يجد حلّاً لتلك المشاكل ويرى الحلّ في الهروب من وطنه ليعيش في ظروف أخرى بعيداً عن ظروف وطنه، يقول خالد بشيء من الخيبة واليأس:

أيّ حزينان كان الأكثر ظلماً، وأيّة تجربة كانت الأكثر ألماً؟

أصبحت أتحاشى طرح هذه الأسئلة، منذ اليوم الذى أوصلتني أجوبتي إلى جمع حقائبي ومغادرة الوطن.

الوطن الذى أصبح سجنًا لا عنوان معروفاً لزنزانتة؛ لا اسم رسمياً لسجنه؛ ولا تهمة واضحة لمساجينه، والذى أصبحت أفاد إليه فجراً، معصوب العينين محاطاً بمجهولين، يقودانني إلى وجهة مجهولة أيضاً(المرجع نفسه: ٢٤٣).

٨) يجمع هذه المرّة الخيبات الذاتية والخيبات القومية فى وجود خالد؛ سمع خبر اجتياح إسرائيل لبيروت أمام الحكام العرب والشعوب:

كان لبداية الصيف ٨٢ طعم المرارة الغامضة، ومذاق اليأس القاتل، عندما يجمع بين الخيبات الذاتية والخيبات القومية مرة واحدة.

«وكنت أعيش بين خبرين: خبر صمتك المتواصل، وخبر الفجائع العربية.

كان قدرى يترّص بي هذه المرة من طريق آخر. فقد جاء اجتياح إسرائيل المفاجئ لبيروت فى ذلك الصيف، وإقامتها فى عاصمة عربية لعدّة أسابيع... على مرأى من أكثر من حاكم... وأكثر من مليون عربى... جاء ينزل بي عدّة طوابق فى سلّم اليأس»(المرجع نفسه: ٢٤٥).

٩) حينما يعود خالد إلى قسنطينة ويتحدّث مع أخيه "حسان" ويعرف أمنياته البسيطة، يكشف أنّ بلده ليس متخلفاً عن البلدان الأوربية فحسب بل إنه متخلف عن زمن الاستعمار. وهذا الكشف يؤدّي إلى الخيبة واليأس فى خالد.

من الواضح أنّ حسان كان متعباً وغارقاً فى مشكلات أولاده السّنة وزوجته الشّابة التى تحلم بحياة أخرى غير حياة قسنطينة المغلقة. وأمّا هو فلم يكن يجرؤ على الحلم، أو بالأحرى كان يحلم آنذاك بالعثور على شخص يتوسّط له ليحصل على ثلّاجة جديدة... لا غير! عندما عرفت أمنيته البسيطة الصّعبة، حزنت وأنا أكتشف أنّنا لم نكن متخلفين عن أوروبا وفرنسا فقط، كما كنت أعتقد، وإلّا لهان الأمر.. وبدا منطقياً. لقد كنّا متخلفين عمّا كنّا عليه منذ نصف قرن وأكثر. يوم كنّا تحت الاستعمار»(المرجع نفسه: ٣٠١).

١٠) يصف خالد أحوال الذين يستغلّون البلد بكلّ صورة، ولا يجد أىّ طريق سوى أن يسكت أمام هذا اليأس والخبطة الاجتماعية والسياسية:

«كان يحدث لأخبارك أن تصلني عن طريق المصادفة، وأنا أستمع إلى من يتحدث عن زوجك عن صعوده المستمر.. وعن صفقاته وشؤونه السرية والعلنية التي تشغل أحاديث المجالس. وكان يحدث لأخبار الوطن أن تأتيني أيضاً تارة في جريدة، وتارة في مجالس أخرى.

وكل مرة، كنت أواجه كل ما أسمع باللامبالاة نفسها التي لا يمكن أن يولدها سوى اليأس الأخير» (المرجع نفسه: ٣٨٣).

«في الواقع، أصبحت عندي قناعةً بانعدام الأمل. كان القطار يسير في الاتجاه المعاكس، وبسرعة لم يكن ممكناً معها أن نفعل شيئاً. أي شيء، غير الذهول وانتظار كارثة الاصطدام» (المرجع نفسه: ٣٨٤).

انتهى هذا القسم؛ فرأينا أن الكاتبة/أحلام مستغانمي تصف الوضع السياسي والاجتماعي بعد الثورة الجزائرية. هناك قسم من المقاتلين يستغلون مناصبهم ويمتلكون أموال البلد. وقسم آخر كخالد لا يحصل على أي شيء. وأيضاً تشير الكاتبة خلال الرواية إلى "اللامساواة في الدخل والثروة" وغياب العدالة الاجتماعية في المجتمع الجزائري.

الخبية في مجال الثقافة

القسم الثالث - والأخير - في الرواية عبارة عن اليأس الثقافي الذي يصل خالد إليه.

(١) كان خالد - بعد تحرير الجزائر - يحلم بمنصب يمكن أن يقوم فيه بشيء من التغييرات دون كثير من الضجيج ودون كثير من المتاعب. ولذا عندما عُيّن كمسؤول عن النشر والمطبوعات في الجزائر، شعر أنه خُلق لذلك المنصب. لكن يعتقد خالد أن الثورة انحصرت في بناء المباني والجدران وما وصل إلى "الثورة الثقافية". فترك عمله في الجزائر وهاجر إلى فرنسا خائباً.

«... قرّرت أن أخرج من الرّداءة، من تلك الكتب الساذجة التي كنت مضطراً إلى قراءتها

ونشرها باسم الأدب والثقافة، ليلتھمها شعب جائع إلى العلم.

كنت أشعر أنني أبيعها معلّبات فاسدة مرّ وقت استهلاكها. كنت أشعر أنني مسؤول بطريقة أو بأخرى عن تدهور صحته الفكرية، وأنا ألقنه الأكاذيب بعدما تحوّلت من مثقف

إلى شرطىّ حقير، يتجسّس على الحروف والنقاط، ليحذف كلمة هنا أو أخرى هناك...»
(المرجع نفسه: ١٤٩).

(٢) من جهة أخرى، لا تعنى الصّافة الجزائرية بمعرض خالد فى الرّسم الذى أقيم فى باريس؛ فيشير خالد إلى البؤس الثقافى فى المجتمع الجزائرى الذى لا وقت له للرّسم والفنّ والكتابة وأىّ شىء آخر... .

انتهى معرضىّ إذاً. لم تهتمّ به غير صحافة فرنسيّة مختصّة كالعادة. وبعض المجلّات العربيّة المهاجرة.

ولكن يمكن أن أقول إنّه حصل عليّ تغطية إعلاميّة كافية، وأنّ الذين كتبوا عنه أجمعوا عليّ أنّه حدث فنّيّ عربىّ فى باريس.

وحدها الصّحافة الجزائريّة تجاهلته، عن إهمال لا غير، كالعادة. جريدة ومجلّة أسبوعيّة واحدة، كتبنا عنه بطريقة مقتضبة. وكأنّهما تعانيان فعلاً من قلة الصّفحات، وليس من قلة الموادّ الصّحافية»(المرجع نفسه: ١٧٩).

ماذا يمكن أن يقدّم معرض للوحات الفنية من متعة أو ترفيه للمواطن الجزائرى الذى يعيش عليّ وشك الانفجار، بل الانتحار، ولا وقت له للتأمّل أو التذوّق، والذى يفضّل عليّ ذلك مهرجاناً لأغنية "الرّأى". يمكن أن يرقص.. ويصرخ.. ويغنى فيها حتى الفجر، منفقاً عليّ تلك الأغاني الشعبيّة المشبوهة...»(المرجع نفسه: ١٨٠).

(٣) يشير خالد إلى قصّة سمعه مرّة، أنّ شخصاً غمّض عينىّ جَمَلِه لكى يدور دور ساحة، وفى النهاية مات الجمل دون أن يكتشف أنّه قضى عمره دائراً حول نفسه، فيقارن بين ذلك الجمل والشّعب الذى غمّضوا عينيه بجرائد تحمل أكياساً من الوعود بغدٍ أفضل، لكن كلّها أكاذيب.

«قادتني أفكارى إلى مشهد شاهدته يوماً فى تونس لجمل مغمّض العينين، يدور دون توقّف فى ساحة "سيدي بو سعيد"، ليستخرج الماء من بئر أمام متعة السّواح ودهشتهم.

استوقفتنى يومها عيناه اللّتان وضعوا عليهما غمامة ليتوهّم أنّه يمشى إلى الأمام دائماً، ويموت دون أن يكتشف أنّه كان يدور فى حلقة مفرغة.. وأنّه قضى عمره دائراً حول نفسه!

ترانا أصبحنا ذلك الجمل الذى لا يكاد ينتهى من دورة حتّى يبدأ أخرى تدور به بطريقة أو بأخرى حول همومه الصّغيرة اليوميّة؟

ترى هذه الجرائد التي تحمل لنا أكياساً من الوعود بغدٍ أفضل، ليست سوى رباط عينين، يخفي عنا صدمة الواقع وفجيرة الفقر والبؤس الحتمي الذي أصبح لأول مرة يتربص بنصف هذا الشعب؟» (المرجع نفسه: ٣١١ - ٣١٠).

نتيجة البحث

وصل المقال إلى هذه النتائج:

١. تميل رواية «ذاكرة الجسد» إلى اليأس والخيبة، وكثيراً ما تعرض عن الرجاء والأمل. وفهمنا من خلال الغوص في الرواية أنّ المجتمع الجزائري كان مؤثراً لإنشاء هذه الخيبة وذلك في نفسية الكاتبة.
٢. يتجلى عنصر الخيبة في الرواية في ثلاثة موضوعات تشمل الحب الفاشل، والخيبة السياسية والاجتماعية، والخيبة للبؤس الثقافي بحيث يسهم الشعب بأكمله في تكوين هذا اليأس.
٣. أسباب الخيبة هي الظروف السياسية والاجتماعية التي تعيشها أحلام مستغانمي وتقول من لسان معطوب الحرب - خالد بن طوبال - الذي هاجر إلى فرنسا: «أعيش في بلد (فرنسا) يحترم موهبتي ويرفض جروحي وأنتمى إلى بلد (الجزائر) يحترم جرحي ويرفضي أنا».

المصادر والمراجع

- أندرسون، إنريك. ١٩٩١م، **مناهج النقد الأدبي**، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكّي، ط ١، القاهرة: مكتبة الآداب.
- حجازي، سمير سعيد. ٢٠٠٤م، **مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر**، ط ١، دمشق: دار التوفيق.
- حمادة، إبراهيم. لا تا، **مقالات في النقد الأدبي**، القاهرة: دار المعارف.
- سكوت، ويلبريس. ١٩٨١م، **خمسة مداخل إلى النقد الأدبي**، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور عناد غزوان اسماعيل وجعفر صادق الخليلى، العراق: دار الرشيد للنشر.
- قصاب، وليد. ٢٠٠٥م، **المذاهب الأدبية الغربية: رؤية فكرية وفنية**، ط ١، دمشق: مؤسسة الرسالة.
- قصاب، وليد. ٢٠٠٩م، **مناهج النقد الأدبي الحديث: رؤية إسلامية**، ط ٢، دمشق: دار الفكر.
- عبد الرحمن، نصرت. ٢٠١٤م، **في النقد الحديث**، ط ٣، الأردن: دار جهينة للنشر والتوزيع.
- العياد، شكرى محمد. ١٩٧١م، **الأدب في عالم متغيّر**، ط ١، القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر.
- نيوتن، ك.م. ١٩٩٦م، **نظرية الأدب في القرن العشرين**، ترجمة الدكتور عيسع على العاكوب، ط ١، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- مستغانمي، أحلام. ٢٠٠٠م، **ذاكرة الجسد**، ط ١٥، بيروت: دار الآداب.

المقالات

- اكبرى زاده، فاطمه والسائرين. ١٣٩٣ش، «دراسة سوسيوثقافية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي»، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الخامسة، العدد ١٩، صص ٢٤-١.
- باينده، هاله والسائرين. ١٣٩٥ش، «سيميائية أسماء الشخصيات في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي الشخصيتين الرئيسيتين نموذجاً»، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، السنة ١٣، العدد ٤٠، صص ٣٩-٥٨.
- زودرنج، صديقه وزميلها. ١٣٩٥ش، «وظيفة مكان القصة بتقديم عناصر المقاومة، رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي نموذجاً»، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، السنة ١٢، العدد ٣٨، صص ١٩٠-١٦٩.
- سامية، حامدى. ٢٠٠٨م، «شعرية النصّ الروائي في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي»، رسالة ماجستير، بانته: كلية الآداب والعلوم الإنسانية لجامعة الحاج لخضر.
- صاعدي، أحمد رضا والسائرين. ١٣٩٢ش، «موازنة بنية الاسترجاع الزمني في رواية دنيا بين (دو دنيا) تأليف كلى ترقى ورواية ذاكرة الجسد تأليف أحلام مستغانمي»، مجلة الدراسات القصصية لجامعة بيام نور، السنة ٢، العدد ٢، صص ٩٢-١٠٩.

دراسة الخيبة والزجاء فى رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمى على ضوء المنهج الاجتماعى / ٤٥

قارة، فلة وزمىلتها. ٢٠١١م، «بناء الشخصية والمكان فى رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمى»،
رسالة ماجستير، قسنطينة: كلية الآداب واللغات بجامعة منتورى.